المجلة الأكاديمية للأبحاث والنشر العلمي | الإصدار السابع عشر | تاريخ الإصدار: ٥-٩-٢٠٢٠م
ISSN: 2706-6495

البلاغة الجديدة

من الثقافة الغربية إلى الثقافة العربية

إعداد الباحث/ منير بورد

طالب باحث بسلك الدكتوراه، مختبر الكتابات الأدبية واللسانية بالمغرب، المدرسة العليا للأساتذة – جامعة محمد الخامس بالرباط – المغرب

Email: mounir.b2009@gmail.com

ملخص

يتكون المقال من محورين اثنين: يحدد الأول مفهوم البلاغة القديمة ويقف بشكل موجز على تاريخها ويتتبع أبرز إسهاماتها، ومن ثم يرصد موقع المنجزات البلاغية الحديثة (البلاغة الجديدة) من هذه الإسهامات معتمدا في ذلك على جملة من المراجع المتخصصة في هذا المجال.

ويجيب المحور الثاني عن سؤال أساسي مترتب عن المحور الأول وهو: هل يمكن الحديث عن بلاغة عربية جديدة؟ وإن كان ثمة من حضور لهذه البلاغة فما هو موقعها من الجهود التي قام بها البلاغيون الغربيون؟

من هذا المنطلق اتجهت العناية في هذا المحور إلى تحديد أهم المساهمات البلاغية العربية الحديثة وتصنيفها إلى مجالات وتوجهات تبعا لطبيعة الموضوع وزاوية النظر.

الكلمات المفاتيح: البلاغة، البلاغة القديمة، البلاغة الجديدة، خطاب، حجاج

ISSN: 2706-6495

Abstract

The article revolves around two main axes. The first axis deals with the concept of "Ancient Rhetoric", and mentions some of its prominent contributions, while locating the modern rhetorical achievements (i.e., the New Rhetoric) as one of the aforementioned contributions based on a number of specialized references.

The second axis sheds light on an important question that follows from the first axis, namely: is it possible to talk about a New Arab Rhetoric? If so, where is this new rhetoric located in relation to the efforts made by Western Rhetoricians? To this end, the second axis has been devoted to determining the main contributions of the New Arab Rhetoric, and classifying them into areas and trends depending on the nature of the subject and the perspective from which it is studied.

Key words: Rhetoric – Ancient Rhetoric – New Rhetoric – Discourse - Argumentation

مقدمة

إن القول بالبلاغة الجديدة يقتضي وجود بلاغة قديمة، وهذه البلاغة القديمة هي الأساس الذي انبنت عليه جهود البلاغيين المحدثين، وعليه فإن أي حديث عن هذه الجهود التي تندرج ضمن ما يسمى بالبلاغة الجديدة يفرض العودة إلى البلاغة الغربية القديمة والوقوف على تاريخها وإبراز إسهاماتها لأجل تحديد موقع المنجزات البلاغية الحديثة من هذه الإسهامات، سيما وأن جل الدراسات البلاغية الغربية الحديثة اتجهت بالأساس إلى بعث المأثور الخطابي الأرسطي في ضوء التطور الكبير الذي عرفته النظريات اللسانية، حيث اتجهت عناية البلاغيين الغربيين إلى إعادة قراءة البلاغة الأرسطية بغية بناء نظرية بلاغية حديثة لتحليل مختلف أصناف الخطاب، وقد أفرز ذلك مجموعة من التوجهات المتباينة ظلت رغم اختلاف زوايا نظرها وفية للمبادئ النظرية التي وضعها أرسطو في مؤلفاته خاصة في كتابه "الخطابة"، وقد أكد رولان بارت هذا الحضور المركزي للبلاغة الأرسطية في الجهود البلاغية الحديثة قائلا إن: "صفة قديم لا تعني أنه توجد اليوم بلاغة جديدة، بل بالأحرى تقابل البلاغة القديمة هذا الجديد الذي لم يتحقق بعد: فلا يزال العالم مليئا بشكل لا يصدق بالبلاغة القديمة" (بارت،١٩٨٤، ص ٣٠).

وقد انعكس هذا الاهتمام بالبلاغة القديمة في الثقافة الغربية على البلاغة العربية، بحيث حاول مجموعة من البلاغيين العرب السير على المنوال نفسه؛ إذ انصرف اهتمامهم إلى إعادة قراءة التراث البلاغي بهدف إخراجه من حالة الجمود والركود الذي عرفه في عهد السكاكي ومن سار على دربه من الشراح والملخصين من جهة، وبناء نظرية بلاغية عربية حديثة لتحليل مختلف أنواع النصوص من جهة ثانية.

ISSN: 2706-6495

وتجدر الإشارة هنا إلى أن البحوث العربية في مجال البلاغة اتخذت مواقفه متباينة من المنجز الغربي المعاصر؛ يمكن حصرها في ثلاثة مواقف أساسية: أولها اهتم بنقل مبادئ هذا المنجز ونتائجه إلى القارئ العربي من خلال الترجمة والعرض والتلخيص، وثانيها حاول تطبيق هذه المبادئ على مدونات عربية، في حين عمل الموقف الثالث على التوفيق بين المنجز العربي والمنجز الغربي وتجاوز مجرد الإفادة من هذا الأخير إلى تطوير نظرية بلاغية عربية حديثة تنطلق من حاجات المجتمع العربي بالأساس.

أهداف البحث

- الوقوف على المحطات الكبرى في تاريخ البلاغة الغربية؛
- تحديد الجوانب التي اتجهت إليها عناية البلاغيين المعاصرين في قراءة المأثور الأرسطي؛
- الوقوف على الاتجاهات البلاغية التي أفرزتها عملية قراءة البلاغة الأرسطية؛
- بيان أثر المنجز الغربي المعاصر على الدراسات البلاغية العربية الحديثة؛
- تحديد أهم المساهمات البلاغية العربية الحديثة وتصنيفها إلى مجالات وتوجهات تبعا لطبيعة الموضوع وزاوية النظر.

يقصد عادة بالبلاغة القديمة ذلك المأثور الخطابي الغربي الذي نشأ في أحضان المنازعات القضائية بين سكان صقلية حول الأرض بعد سقوط الطغاة الذين حكموها في بداية القرن الخامس قبل الميلاد، وقد عرف هذا المأثور مجموعة من التحولات والتطورات إلى أن استوى نسقا نظريا متكاملا على يد أرسطو، وظل هذا النسق مهيمنا على البلاغة الغربية حتى أصبحت تنتسب إلى أرسطو مباشرة.

وتفيد أغلب المراجع التي اهتمت بتاريخ البلاغة الغربية أنها عرفت مجموعة من المراحل نختزلها في المحطات التالية:

١. مرحلة النشأة

تجمع أغلب الروايات المهتمة بالبلاغة اليونانية على أن نشأة الخطابة ارتبطت بما شهدته صقلية من نزاعات قضائية ترتبت عن مصادرة أملاك الصقليين لصالح المرتزقة في القرن الخامس قبل الميلاد، ومن ثم نبعت الحاجة إلى تعليم وتعلم فن الخطابة للمطالبة باسترداد الملكيات؛ فظهرت مجموعة من الكتيبات اضطلع أصحابها بتقديم مجموعة من القواعد من شأنها تحقيق النجاعة في الخطاب وبلوغ الغاية المتمثلة في الإقناع، لعل أهمها الكتيب التعليمي "لكوراكس" و"تسياس" الذي اهتم بتعريف الخطابة واقتراح الأجزاء المنظمة لمادتها.

٢. مرحلة الخطابة الأثينية

بينما تتمثل المرحلة الثانية في الخطابة الأثينية التي عرفت ازدهارا كبيرا على يد طائفتين اثنتين؛ أولاهما السفسطائيون الذين ساهموا في الدفع بالخطابة إلى الخروج من إطارها الضيق من خلال تقسيمها إلى ثلاثة أجناس خطابية (قضائية،

ISSN: 2706-6495

استشارية، احتفالية)، وفتحها على مجموعة من المعارف الجديدة المتعلقة بالنحو والمعجم والأسلوب والوجوه البلاغية، وعليه اتجهت عنايتهم إلى "إكساب المتعلم مهارة الحجاج أي الدفاع عن آرائه وتفنيد آراء الخصم والقدرة على استمالة الجمهور في الساحة العمومية أو في المحكمة" (بنوهاشم، ٢٠١٤، ص ٨٥) معتمدين في ذلك على آليات الاستدلال وتقنيات الحجاج التي وضع أسسها كل من "بروتاغوراس" و"جورجياس"، وهكذا وصلت البلاغة إلى قمة الغرور والأنانية مع السفسطائيين إذ "صارت تعتقد السيطرة على العالم ومنافعه من خلال الكلام" (العمري، ٢٠١٣، ص ١٧٨).

وتتمثل الطائفة الثانية في معلمي الخطابة الذين ساروا وفق النهج الذي خطه السفسطائيون، وقد كان تعليمهم عمليا "يقدم القواعد لكنه يركز أساسا على التطبيق، فقد كانوا يعدون لتلامذتهم نماذج استهلالات للخطب واختتامات لها وأحيانا مرافعات كاملة، وقوائم أو صياغات للمواضع المشتركة وكلها مهيأة للحفظ والتقليد" (بنوهاشم، ٢٠١٤، ص ١٥٨)، ولكن هذا لا يعني أن إسهامات معلمي الخطابة انحصرت في تقديم نماذج تطبيقية للمتعلمين، بل إنهم ساهموا في تطوير هذا الفن من خلال مجموعة من المصنفات تناولت قضايا: الترتيب، المواضع المشتركة، الحجج، الأسلوب والإلقاء الخطابي...

٣. مرحلة الخطابة الأرسطية

وتتجلى المرحلة الثالثة – وهي الأهم – في المرحلة الأرسطية حيث ستنتظم الخطابة في نسق نظري من خلال كتاب الخطابة لأرسطو الذي عمل على تحديد المبادئ والقواعد والإجراءات التي توجه هذه الممارسة، وعليه اتجهت عنايته إلى تعريف الخطابة تعريفا أكثر دقة وأكثر علمية بقوله إنها القدرة على الكشف في كل حالة عن المقنع الكامن فيها، وهو بذلك يضفي عليها "طابعا نظريا يسمو بها عن الطابع التجريبي الذي وسم محاولات تقعيدها قبله" (بنوهاشم، ٢٠١٤، ص ٢٠٣) ؛ إذ يحدد ماهيتها باعتبارها قدرة عقلية كما يحدد وظيفتها المتمثلة في الكشف عن وسائل الإقناع الكامنة في كل موضوع.

ويتوقف الإقناع عند أرسطو على ثلاثة عناصر أساسية: "أولا أخلاق القائل وهو ما يمكن أن نسميه بحجة الإيتوس Ethos، وثانيا تصدير السامع في حالة نفسية ما، وهو ما يمكن أن نسميه بحجة الباتوس Pathos، وثالثا القول نفسه من حيث هو يثبت أو يبدو أنه يثبت وهو ما يمكن أن ننعته بحجة اللوغوس Logos، أي الكلام / أو العقل" (صولة، نظرية في الحجاج: دراسات وتطبيقات، ٢٠١١، ص ٧١)، وعلى هذا جاءت أجناس الخطابة الثلاثة: الخطبة المشورية، الخطبة المشاجرية، الخطبة التثبيتية.

وهكذا يكون أرسطو قد رد الاعتبار للخطابة واستطاع أن يشيد لها صرحا نظريا من خلال حرصه على تعريفها تعريفا جامعا مانعا وتحديد مبادئها وأهدافه. ويمكن أن نكيز في هذه المراحل الثلاث بين فترتين؛ أولاهما فترة ما قبل التنظير وتشمل البدايات الأولى للخطابة أي الخطابة الصقلية والأثينية، والثانية هي فترة التنظير مع أرسطو الذي ميز بين الخطابة باعتبارها ممارسة والخطابة باعتبارها علما.

ISSN: 2706-6495

٤. مرحلة الركود والكساد أو موت البلاغة

أخذت البلاغة الأرسطية أو الخطابية تتراجع شيئا فشيئا منذ أواخر القرن السادس عشر الميلادي، وبلغت نوعا من الكساد والركود في القرن التاسع عشر، ويرجع ذلك إلى مجموعة من العوامل لعل أهمها بروز الفلسفة الديكارتية وغلبة التوجه الرومانسي في أوائل القرن التاسع عشر، والذي كان رواده ينظرون إلى البلاغة "شزرا ويلصقون بها كل التهم في جمود الأدب، إذ لم يعد لها في نظرهم غير السهر على حماية كمشة من صور الاستعمال التي ينعدم معها الإبداع" (العمري، أسئلة البلاغة في النظرية والتاريخ والقراءة، ٢٠١٣، ص ٨١)، وقد ساهمت في ترسيخ هذه النظرة المستهجنة للبلاغة الفلسفة الوضعية التي بلغت أوجها في هذه الفترة، وهكذا تراجع البعد الخطابي للبلاغة لحساب البعد الأسلوبي الذي يختزل البلاغة في مجموعة من الصور الأسلوبية التي تؤدي وظيفة تحسينية تسهم في تحقيق جمالية اللغة الأدبية، وقد أدى بها ذلك في نهاية المطاف إلى الموت إذ حذفت من المقررات الدراسية وأصبح ينظر إليها بوصفها مبحثا لا قيمة له.

٥. مرحلة البعث والإحياء أو موت البلاغة

إذا كانت البلاغة القديمة هي هذا المأثور الخطابي الأرسطي الذي عرف في أواخر القرن التاسع عشر حالة من الركود والكساد، فإن البلاغة الجديدة هي مجموع الجهود التي قام بها البلاغيون المحدثون لبعث هذا التراث؛ حيث دعا مجموعة من الباحثين إلى "إعادة التفكير في البلاغة الكلاسيكية بمفاهيم بنيوية لأجل وضع بلاغة عامة أو لسانية لدوال التضمين صالحة للصوت المنطوق والصورة والإيماء" (بارت، ١٩٨٤، ص ٥) ، وهكذا انخرط الباحثون في عملية رد الاعتبار للتراث البلاغي اليوناني لأجل بناء بلاغة جديدة، وترجع هذه النهضة البلاغية إلى "الأهمية المتزايدة للسانيات التداولية، ونظريات التواصل والسيميائيات والنقد الأيديولوجي، وكذا الشعرية اللسانية في مجال وصف الخصائص الإقناعية للنصوص وتقويمها" (بليث، البلاغة والأسلوبية، ١٩٩٩، ص ٢٢).

وقد أفرز هذا الاهتمام المتزايد بالبلاغة القديمة مجموعة من التوجهات المتباينة حصرها الأستاذ محمد العمري في ثلاثة توجهات؛ أولها حجاجي منطقي أو فلسفي يجر البلاغة نحو المنطق ويمثله كتاب "مصنف في الحجاج، البلاغة الجديدة" لبيرلمان وتيتيكا، والثاني أسلوبي أدبي يجرها إلى الشعر عبر الأدب، وتمثله مجموعة من الأعمال منها كتاب مشترك بين أفراد جماعة "مي" بعنوان "البلاغة العامة"، والثالث خطابي سيميائي يروم تغطية المجال التواصلي ويمثله كتاب "البلاغة والأسلوبية" لهنريش بليث.

ولما كان المجال لا يستع لعرض هذه التوجهات الثلاثة، فإننا سنقتصر على التوجه الحجاجي المنطقي الذي تمثله جهود الباحث البلجيكي شاييم بيرلمان، الذي أعطى الانطلاقة الأولى للاهتمام بموضوع الحجاج والمنطق الصوري، وذلك منذ صدور أول كتاب له بعنوان: "البلاغة والفلسفة: نحو نظرية للحجاج في الفلسفة" سنة ١٩٥٢، ثم كتابه المشهور الذي ألفه بمعية أولبرخت تيتكا بعنوان "مصنف في الحجاج: البلاغة الجديدة" وقد صدر بعد ذلك بست سنوات، ويعد "جماع تصانيف المؤلفين وزبدة أبحاثهما المتفرقة في مقالات وكتب أخرى لهما وهو أكثرها شهرة واكتمالا وإلماما بقضايا الحجاج" (صمود، أهم نظريات الحجاج في التقاليد الغربية من أرسطو إلى اليوم، ص ٢٩٨)؛ إذ حددا فيه بدقة وتفصيل نظريتهما المقترحة من خلال ثلاثة أقسام تشكل لب هذه النظرية: أطر الحجاج، منطلقات الحجاج، تقنيات الحجاج،

ISSN: 2706-6495

وقد عرضها شاييم بيرلمان بشكل مختصر في كتابه "إمبراطورية البلاغة" الصادر سنة ١٩٧٧ أي ست سنوات قبل وفاته ويعتبر "عصارة نظريته وخلاصة خلاصات أعماله، سواء السابقة لصدور المصنف أو اللاحقة له، فكل أعماله هي إما روافد تصب فيه أو امتدادات له" (بنوهاشم، نظرية الحجاج عند شاييم بيرلمان، ٢٠١٤، ص ٢٨). ومنذ ذلك الوقت أصبح الباحثون في مجالات معرفية مختلفة (البلاغة، اللسانيات، الفلسفة...) يهتمون بموضوع الحجاج اهتماما كبيرا، فألفوا فيه المصنفات والكتب والمقالات وعقدوا له الندوات والملتقيات، إيمانا منهم بأهمية هذا المبحث في توجيه الرأي العام وبلورة الفكر المعاصر من جهة، وفي تحديد مبادئ الحوار السليم النافع وترسيخ أخلاقياته من جهة ثانية.

ومعلوم أن أهم إنجاز حققه شاييم بيرلمان من خلال أعماله هو "أنه أعاد للخطابة طابعها الفلسفي الذي حرمت منه عبر قرون، على يد أفلاطون الذي اعتبرها مجرد سفسطة، وبمساهمة من أرسطو نفسه، الذي أبعدها عن الفلسفة حين فصلها عن الجدل... بهذا الإنجاز، أصبح بيرلمان، بدون شك، من أكبر مجددي الفكر الإنساني المعاصر" (بنوهاشم، نظرية الحجاج عند شاييم بيرلمان، ٢٠١٤، ص ٢٨)، فالمفهوم الذي اقترحه للحجاج هو نتاج إعادة النظر في التمييز الذي أقامه أرسطو بين الحجاج الجدلي والحجاج الخطابي، باعتبار الأول مجالا فكريا خالصا ومداره على مناقشة الآراء مناقشة نظرية محضة لغاية التأثير العقلي المجرد، ومعنى هذا أن المتكلم الذي يدافع عن موقف أو فكرة أو قضية لا يخاطب في متلقيه سوى العقل، ولكن بعيدا عن الإلزام والضرورة المنطقية، بحيث يتميز الجدل عن البرهنة بكونه ينطلق من المقدمات المشهورة وهي "القضايا التي اتفقت عليها آراء الجميع أو آراء طائفة خاصة، ومن المسلمات وهي القضايا التي يسلم بها الخصم ويقبلها وإن لم تكن صحيحة عند المستدل" (الحسيني، ١٩٨١، ص ١٠٤)، أي أنه يستدل انطلاقا من المحتمل، في حين تنطلق البرهنة من مقدمات ضرورية وملزمة. بينما اعتبر الحجاج الخطابي مجالا عاطفيا؛ بحيث إذا كان الأول يسعى إلى التأثير العقلي فإن الثاني يروم التأثير العاطفي في المتلقي، ويسعى إلى استمالته "ولو كان ذلك بمغالطته وخداعه وإيهامه بصحة الواقع على نحو تبدو معه الخطابة – من هذه الناحية على الأقل – من قبيل التخييل" (صولة، الحجاج في القرآن ، ٢٠٠١، ص ١٨)، وهو ما جعل الخطابة مرتبطة بالمغالطة والخداع وجعلها متهمة بتزييف الواقع وتشويه الحقيقة. ولما كان الحجاج قاسما مشتركا بين الجدل والخطابة باعتباره "سلسلة من الأدلة تفضي إلى نتيجة واحدة أو الطريقة التي تطرح بها الأدلة" (صولة، الحجاج في القرآن ، ٢٠٠١، ص ١٧)، فقد عمل شاييم بيرلمان على تخليصه من التهمة التي رافقته في مختلف مراحله التاريخية وكانت سببا في تراجع الخطابة الأرسطية وركودها، ونقصد هنا تهمة المغالطة والخداع والمناورة والتلاعب بعواطف المتلقي وبعقله بغية دفعه إلى التسليم بالحكم المراد إقناعه به.

كما أنه خلصه من صرامة الاستدلال المنطقي القائم على الضرورة والإلزام، مقترحا بذلك مفهوما جديدا للحجاج قوامه المعقولية وحرية الاختيار؛ إذ هو "حوار من أجل حصول الوفاق بين الأطراف المتحاورة، ومن أجل حصول التسليم برأي آخر بعيدا عن الاعتباطية واللامعقول اللذين يطبعان الخطابة عادة بعيدا عن الإلزام والاضطرار اللذين يطبعان الجدل. ومعنى ذلك كله أن الحجاج عكس العنف بكل مظاهره" (صمود، أهم نظريات الحجاج في التقاليد الغربية من أرسطو إلى اليوم، ص ٢٩٨).

وهكذا يقوم مفهوم الحجاج عند شاييم بيرلمان على عنصر الاحتمال الذي لا مجال فيه لحقيقة ثابتة ونهائية،

ISSN: 2706-6495

فهو مجال تطبعه المرونة والنسبية لأن الموضوع الذي ينشغل به هو الخطاب المتعلق بأمور الحياة والقضايا التي تطرحها على الناس، وهي قضايا ذات طبيعة خلافية لا يمكن الحسم فيها بواسطة الفكر البرهاني الذي تكون نتائجه نهائية وملزمة للجميع، وإنما بواسطة حجاج غاية ما يسعى إلى تحقيقه هو ترجيح حكم على آخر بالاعتماد على حجج تبقى دائما عرضة للتفنيد والحجة المضادة في ارتباط تام بالظروف والملابسات المقامية، إذ يتميز هذا الحجاج "الذي يستعمل طرق إثبات، نفضل أن ندعوها بطرق إثبات بلاغية عوضا عن جدلية – بسبب المعاني المختلفة لكلمة جدلي في الفكر الغربي – بكونه ليس ضروريا ولا قسريا إلزاميا، ولا يعرض لخاصية البداهة التي لطالما سعى إليها ديكارت. وهو أكثر أو أقل فعالية مؤثرة بقدر ما تسمح فيه بكسب أو تعزيز تأييد أذهان المخاطبين نحو فرضيات / أطروحات / اعتقادات / آراء مطروحة للنقاش في سبيل الوصول لاتفاق عام بشأنها" (بيرلمان، ٢٠٢٠، ص ٢٤).

وبهذا شكلت نظرية الحجاج أو البلاغة الجديدة، كما هو متداول في الدراسات الغربية، قطيعة إبستمولوجية مع الفكر الديكارتي الذي لا يؤمن إلا بالبرهان، ويأخذ بعقلانية واحدة هي العقلانية البرهانية المتمثلة في القياس المنطقي ويستبعد الأشكال العقلانية الأخرى، حيث دعا شاييم بيرلمان إلى ضرورة مراجعة هذه التصورات القائمة على الفكر الصوري الصارم، بوضع هذا النموذج المثالي المقترح على الإنسان في مجال أعم يتمثل في الفكر الحجاجي، الذي ينظم حواراتنا ومناقشاتنا ويحدد اختياراتنا ويبرر أحكامنا وقراراتنا، وهو وإن كان فكرا غير برهاني بالمعنى المذكور، فهذا لا يعني أنه غير منطقي فهو "يتوفر على أبنية وتقنيات خاصة يمكن اعتبارها موافقة لما هو عقلاني ويتجاوز المعنى الشكلاني لهذه الكلمة. ولا يشير هذا قطعا إلى العقل الأزلي الثابت غير القابل للتغيير، وإنما إلى كل ما له علاقة بالعقل البشري المتعين ضمن أطره الاجتماعية والزمانية التاريخية" (بيرلمان، ٢٠٢٠، ص ٣٩).

ولا يخفى أن الحجاج بهذا المفهوم القائم على "الاحتمال" يرتكز بالأساس على المأثور الخطابي الأرسطي الذي بنى تصوره للخطابة على نظرية الشبيه بالحقيقة، التي ترى أن الحقيقة لا وجود لها في ذاتها وإنما هي ثمرة اتفاق بين الناس، ومعنى هذا أنه لا وجود لحقيقة ثابتة ومطلقة، ومن ثم فإن ما يدافع عنه المتكلم في خطابه من مواقف وآراء تبقى نسبية وهشة على الدوام وقابلة للدحض والتقويض إذا ظهر حجاج مضاد، لأنها مرتبطة برأيه الشخصي واعتقاده الخاص والملابسات المقامية، وقد تتدخل في بنائها عناصر أخرى غير عقلانية كالأهواء والمصالح... وعليه فإن "مجال الخطابة هو الشبيه بالحقيقة والحديث في هذا المجال عن حقيقة ثابتة هو خروج عن نطاقها، وفتح للباب على مصراعيه أمام قمع الرأي الآخر وأمام التحكم والاستبداد" (بنوهاشم، بلاغة الحجاج الأصول اليونانية، ٢٠١٤، ص ٥٩)، ولذلك فلا مجال هنا للقسر والإلزام على القبول برأي ما أو القيام بعمل معين، وقد أكد شاييم بيرلمان هذا الأمر في معرض حديثه عن الفرق بين الفكر البرهاني والفكر الحجاجي – البلاغي بقوله: "فالعقل والحرية الإنسانية اللذان يمثلان شرط الحجاج البلاغي، وكذلك التأييد لأطروحات المتكلم أو رفضها، كلها تختلف تماما عن الأنموذج الديكارتي الأبدي الثابت غير القابل للتغيير. فهي تنظر بعين الاهتمام للفرد والقيم الخاصة به، ولن يغيب عنها أن تضعه ضمن جماعته المحلية التي صاغته وشكلته، وهو بدونها سيكون عاجزا تماما" (بيرلمان، ٢٠٢٠، ص ٤٠).

من هذا المنطلق عمل بيرلمان على بعث البلاغة الأرسطية وتطويرها وتوسيع مجالها لكي تصبح صالحة لدراسة مختلف أنواع الخطاب، ومنها الخطاب الفلسفي والقانوني،

ISSN: 2706-6495

إذ لم يعد الحجاج من هذا المنظور مقتصرا على جمهور مباشر يجتمع في ساحة عامة كما هو الحال في البلاغة القديمة، وإنما أصبح موجها لمختلف أنواع المخاطبين بما في ذلك الذات المتكلمة نفسها عندما تكون في حوار داخلي حول موضوع ما، يقول بيرلمان: "لست من المهتمين بوجه خاص بالخطب الموجهة علنا إلى جمهور مستمع يحتشد في ساحة التجمع العامة agora (مركز الحياة السياسية والفكرية والفلسفية والروحية في أثينا، حيث يتبادل فيها الجميع الآراء حول المشاكل والقضايا المشتركة، دون تمييز نخبوي بين العامي والسياسي والفيلسوف) أو في منتدى التجمع العام الروماني forum (وهو مكان يضطلع بالوظيفة نفسها التي تقوم بها ساحة أغورا عند الآثنيين)، بل سأتوسع في نطاق أبحاثي حول نظرية الحجاج، لتشمل جميع أشكال الجمهور التي يمكن لنا أن نتصورها، بدءا من عملية النقاش مع مخاطب واحد وانتهاء بالنقاش الذي يجري أثناء عملية التفكير الذاتية الأكثر خصوصية حيث يقوم الفرد خلالها بفحص منافع القضية موضع النقاش من عواقبها في قرارة أعماقه" (بيرلمان، نحو نظرية فلسفية في الحجاج، ٢٠١٩، ص ١٦)، وفي هذا السياق يميز بيرلمان بين نوعين من الحجاج تبعا لنوعية الجمهور، أولهما الحجاج الإقناعي ويروم إقناع جمهور خاص محدود، وثانيهما حجاج اقتناعي يبتغي أن يسلم بما يعرضه كل ذي عقل، ومن ثم فهو يتوجه إلى جمهور عام أو كوني وهو "الذي يستحضره الخطيب دائما باعتباره مقياس القبول أو الرفض" (صمود، أهم نظريات الحجاج في التقاليد الغربية من أرسطو إلى اليوم، ص ٣٠١) ولهذا فهو ملزم بتوظيف حجج ومقدمات كفيلة بتحقيق الاقتناع وبالتالي الإذعان عند جميع أفراده، وعليه فالحجاج الاقتناعي عقلاني مقارنة مع الأول الذي يرتكز بشكل أساسي على مخاطبة الخيال والعاطفة، ويتموقع الحجاج الفلسفي في إطار الحجاج الاقتناعي، بحيث يخاطب الفيلسوف الجمهور الكوني بحجج أساسها عقلي تجعل ما يعرضه مقبولا من طرف أي مخاطب أينما كان في الكون وكيفما كانت لغته وثقافته وديانته؛ فـ"لو لم يكن الحجاج الفلسفي موجها دائما نحو الجمهور الكوني لما استطاع أن يقدم للفكر الإنساني، أفضل النماذج في حقل الفلسفة" (بيرلمان، فلسفة البلاغة الجديدة، ٢٠٢٠، ص ٢٧)، وهو ما يمنح الخطاب الفلسفي قوة حجاجية تفوق أنواع الحجاج الأخرى، ولكنها قوة لا ترقى بطبيعة الحال إلى البرهان الرياضي المنطقي الذي يؤدي إلى إرغام العقل وقسره وإلزامه بما يعرض عليه.

وبناء على هذا حدد بيرلمان في كتابه المشترك مع زميلته أولبريخت تيتيكا "مصنف في الحجاج، البلاغة الجديدة" منطلقات الحجاج ببيان أنواع المقدمات التي ينبغي أن ينطلق منها المتكلم في استدلاله (الوقائع، الحقائق، الافتراضات، القيم، هرمية القيم، المواضع) وطريقة صياغتها وانتقائها، بحيث يجعل المهم منها بالنسبة لحجاجه حاضرا بقوة في أذهان سامعيه، وكذا طريقة عرضها في الخطاب؛ إذ لا يكفي أن ينتقي المتكلم هذه المقدمات ويقدمها بشكل عشوائي، هكذا كيفما اتفق، لكي يحقق الإذعان ويحرك الإرادة عند المتلقي، وإنما ينبغي أن يأخذ بعين الاعتبار منهجية تقديمها في الخطاب، ذلك "أن نجاعة العرض شرط ضروري لكل محاجة هدفها التأثير في جمهور السامعين بتهيئتهم للعمل المباشر سلوكا وبتوجيه أذهانهم وجهة معينة فكرا" (صمود، أهم نظريات الحجاج في التقاليد الغربية من أرسطو إلى اليوم، ص ٣١٧)، كما حدد مجموعة من التقنيات الحجاجية التي من شأنها أن تفضي إلى اقتناع الجمهور بمختلف أنواعه، وقد قسمها إلى صنفين اثنين؛ أولهما أسماه طرائق الوصل ويقصد بها مجموع الطرائق التي تصل بين عناصر مختلفة في الأصل، وتضم ثلاثة أنواع من الحجج: حجج شبة منطقية، حجج مؤسسة على بنية الواقع وحجج مؤسسة لبنية الواقع، وكل نوع من هذه الأنواع الثلاثة يتفرع بدوره إلى مجموعة من الأدلة الجزئية،

ISSN: 2706-6495

بينما يتمثل الصنف الثاني في الطرائق الانفصالية ويقصد بها مجموع التقنيات التي تروم الفصل بين عناصر مترابطة في الأصل تشكل كلا لا يتجزأ أو "على الأقل كلا متضامنة أجزاؤه في نطاق نظام فكري واحد" (صمود، أهم نظريات الحجاج في التقاليد الغربية من أرسطو إلى اليوم، ص ٣١٦ - ٣١٧)، وهي كلها حجج تتسم بالمرونة ومعرضة للتفنيد والدحض؛ فهي "ليست قسرية إلزامية، لأننا نستطيع على الدوام أن نعارضها باستدلال في الاتجاه المعاكس، ويمكننا دوما إثبات الجوانب التي تقع لصالح أطروحة ما أو ضدها، وهذا لا يعني أبدا أن للجانبين نفس القيمة، وإذا كان الأمر كذلك، كيف يمكن لقاض يجب عليه دائما الاستماع لشخصين اثنين للقضية نفسها من طرفي الدعوى النطق بالحكم" (بيرلمان، فلسفة البلاغة الجديدة، ٢٠٢٠، ص ٣٧).

وعليه فإن نظرية الحجاج أو البلاغة الجديدة عند شاييم بيرلمان تقترح نموذجا حجاجيا لتحليل مختلف أصناف الخطاب، بدءا من المحادثة اليومية العادية، ووصولا إلى أرقى الأشكال الحجاجية ممثلة في الخطاب الفلسفي، كما أنها تنفتح على بعض الخطابات التي يهيمن عليها البعد الأدبي مقارنة مع البعد الحجاجي، كما هو الحال بالنسبة للخطاب الشعري؛ فهو وإن كان خطابا ذا طبيعة تخييلية فهو لا يخلو من قصد حجاجي، غير أن "درجة الحجاجية في خطاب أدبي قد تقل مقارنة بخطاب سياسي أو ديني أو إشهاري مثلا" (مشبال، البلاغة والخطاب، ٢٠١٤، ص ١٥٣) ذلك أن النص الأدبي مهما كان نوعه: شعرا، رواية، قصة... يروم أثرا معينا تبعا للوظيفة التي يضطلع بها العمل الأدبي (الوظيفة الانفعالية، الوظيفة التوجيهية، الوظيفة الإقناعية).

يترتب عن السابق قوله وجوب طرح سؤال أساسي: هل يمكن الحديث عن بلاغة عربية جديدة؟ وإن كان ثمة من حضور لهذه البلاغة فما هو موقعها من الجهود التي قام بها البلاغيون الغربيون؟

لا يتسع المقام للحديث عن البلاغة العربية القديمة بل ليست هناك ضرورة كبيرة للعودة إليها مستقلة عن البلاغة العربية الحديثة، التي تمحورت حول إعادة قراءة التراث البلاغي العربي القديم؛ بحيث إذا كان البلاغيون الغربيون قد أعادوا قراءة البلاغية اليونانية (ريطورية أرسطو) وأنتجوا ما يسمى بالبلاغة الجديدة، فإن بعض البلاغيين العرب المعاصرين حاولوا القيام بنفس الأمر مع البلاغة العربية اعتمادا على معطيات البلاغة الجديدة؛ وهكذا انصرفت جهودهم إلى مجالين اثنين:

- إعادة التأريخ للبلاغة العربية من منظور حديث؛
- دراسة بعض النصوص في ضوء البلاغة الجديدة (المنجز البلاغي الغربي)

تمثل المجال الأول مجموعة من الدراسات لعل أهمها كتاب "البلاغة العربية: أصولها وامتداداتها" للدكتور محمد العمري؛ الذي قام بقراءة نسقية شمولية للبلاغة العربية بدءا من إرهاصات نشأتها الأولى وصولا إلى قمة عطاءاتها مع عبد القاهر الجرجاني وحازم القرطاجني، محددا بذلك روافدها الكبرى وصلتها الوثيقة بجملة من المباحث والعلوم، فمن المعلوم أن البلاغة تقاطعت منذ ميلادها عند اليونان مع المنطق والأخلاق والسياسة والأدب، وتداخلت عند العرب المسلمين بالنحو والمنطق والنقد والتفسير... فلا تكاد تجد البلاغة إلا ملتبسة بغيرها من الحقول،

ISSN: 2706-6495

وعليه فلكي يصل الباحث في هذا الميدان إلى تكوين صورة متكاملة للبلاغة العربية ورسم خريطة واضحة المعالم لأرضها عليه أن يلم بكافة روافدها من نقد وتفسير ودراسات شعرية وخطابية... أي أن بحثه يتشعب إلى حد كبير.

وأيا كان الأمر فإن قراءة الأستاذ محمد العمري للتراث البلاغي العربي تنم عن وعي تام بشمولية هذا العلم ورحابته، بحيث كشفت عن أصوله وألقت الضوء على المناخ الثقافي والمذهبي والديني المتحكم في المشاريع البلاغية الكبرى، وبهذا فهي تروم فتح موقع للبلاغة العربية في تاريخ البلاغة العالمية.

وتجدر الإشارة هنا إلى أن هذه القراءة النسقية تقوم على جملة من المبادئ يمكن حصرها في ثلاثة مبادئ أساسية؛ أولها ما أسماه الباحث بـ "الحوار بين المشاريع والمنجزات" أي مقارنة ما تعهد به البلاغي في مقدمة الكتاب بما سمحت الظروف بإنجازه، فكأنه يقول للبلاغيين العرب: إن ما صرحتم به في مقدمات مؤلفاتكم شيء وما أنجزتموه شيء آخر، وعليه فإن كتاب البلاغة العربية "يحاور الكتابة غير النسقية باتجاهيها التراكمي والانتقائي: الاتجاه الذي يقدس القديم ويسعى إلى إنتاجه، والاتجاه الذي ينتقي منه لمعا خارج سياقها" (العمري، ٢٠١٣، ص ٢٤٠)، وثانيها مبدأ "التراكم" بحيث يرى العمري أن كل بلاغي يستفيد من أعمال سابقيه بل ويبني عليها، وهذا أمر طبيعي إذ المعرفة الإنسانية بشكل عام أشبه بالبناء يشيد طابقا فوق طابق يستفيد فيه اللاحق مما أنجزه السابق، وثالث هذه المبادئ "المبدأ البيداغوجي" المتمثل في اعتماد جملة من الأساليب البيداغوجية في تقديم المادة وتقليبها على أوجه مختلفة مستحضرا جمهورا واسعا من القراء "من التلميذ في الثانوية العامة إلى الطالب في الدراسات العليا المتخصصة إلى اللساني المنطقي والفيلسوف إلى المحامي المجتهد فضلا عن الباحث المتخصص في الأسلوبية" (العمري، البلاغة العربية، ٢٠١٠، ص ٥)، ولعل هذا ما يفسر الانتشار الكبير لهذا الكتاب إذ وجد على كبر حجمه وطبيعة موضوعه إلى القراء سبيلا ولاقى لدى الباحثين المتخصصين رواجا.

ويمكن الإشارة أيضا في هذا الجانب إلى كتاب "التفكير البلاغي عند العرب، أسسه وتطوره إلى القرن السادس" لحمادي صمود الذي عمل على قراءة التراث البلاغي من منظور حداثي لساني ينظر إليه من "منطق التفاعل بينه وبين الحداثة قصد فهمه في ذاته واستجلاء أبعاد النظرية الأدبية التي يتضمنها ثم لمحاصرة مظاهر المعاصرة فيه التي يمكن استحضارها اليوم للمساهمة في تغذية النقاش القائم حولنا في هذه القضايا" (صمود، التفكير البلاغي عند العرب، ١٩٨١، ص ١١).

وعليه اتجهت عنايته إلى دراسة أطوار البلاغة العربية على مدى يزيد على ستة قرون معتمدا في ذلك على ما أسماه بنقطة الارتكاز في البلاغة العربية، بحيث يرى أن مؤلفات الجاحظ تشكل هذه النقطة ومن ثم فإن محاولة التأريخ للبلاغة العربية تقتضي الأخذ بعين الاعتبار الجهود النظرية للجاحظ التي تعد أساس التفكير البلاغي عند العرب؛ فمن المعلوم أن مؤلفاته شكلت "مصب قرون من النشاط البلاغي ومجمع أهم انطباعات العرب البيانية وأحكامهم وصورة عما كان يدور في عصره" (صمود، التفكير البلاغي عند العرب، ١٩٨١، ص ١٦).

من هذا المنطلق قسم الباحث دراسته إلى ثلاثة أبواب أولها يحمل عنوان "البلاغة قبل الجاحظ" وقد خصصه لبيان العوامل الثقافية والفكرية والدينية التي ساهمت في نشأة التفكير البلاغي عند العرب،

أي مجمل العوامل التي "حملت الناس على التفكير في اللغة تفكيرا معياريا جماليا يترصد عناصر الجودة فيها ويصف الأساليب ويصنفها معتمدا على ما بينها من تفاعل" (صمود، التفكير البلاغي عند العرب، ١٩٨١، ص ٢١)، وثانيها يحمل عنوان "الحدث الجاحظي"وقد وقف فيه على الأسس الكبرى التي يقوم عليها المشروع البلاغي عند الجاحظ بدءا بخصائص المادة البلاغية في مؤلفاته ومرورا بمفهوم البيان في نظريته ووصولا إلى خصائص ومقومات الكلام البليغ، في حين يحمل الباب الثالث عنوان "البلاغة بعد الجاحظ إلى القرن السادس" حيث يتتبع المؤلف المساهمات البلاغية بعد الجاحظ عند كل من ابن قتيبة والمبرد وابن المعتز والجرجاني والسكاكي، مركزا بذلك على القضايا الأساسية التي أثارتها ممارسة العرب للبعد الإنشائي في اللغة.

والملاحظ أن التأريخ للبلاغة العربية من هذا المنظور استفاد بشكل كبير من النظريات اللسانية الحديثة، ويظهر ذلك بجلاء في الآليات المنهجية المعتمدة في التعامل مع الموروث البلاغي والنقدي العربيين، فالأستاذ حمادي صمود اعتمد في قراءته للبلاغة العربية على ما أفرزته علوم النص والأسلوبية والشعرية والسيميائيات وحركة النقد الجديد في فرنسا من مفاهيم لمعالجة قضايا الخطاب الأدبي وأسرار الإبداع فيه وما صاغته من تصورات عن مباني القول وتولد معانيه، في حين اعتمد الأستاذ محمد العمري على نظريتين اثنتين: أولاهما "البنيوية" التي قدمت له أدوات فعالة في مستوى الوصف والتفكيك والتركيب، والثانية "التلقي" بحيث وقف على قراءة الفلاسفة العرب (الفرابي، ابن سينا، ابن رشد) للإرث الأرسطي من جهة وقراءة البلاغيين العرب للجهود السابقة من جهة ثانية، فتحقق بذلك نوع من التكامل بين البنيوية والتلقي "فأنت لا تستطيع أن تعتبر السكاكي قارئا للجرجاني قبل أن تفكك وتركب عمل كل منهما، ونفس الشيء يقال عن ابن وهب والجاحظ، وحازم وابن سنان الخفاجي" (العمري، أسئلة البلاغة في النظرية والتاريخ والقراءة، ٢٠١٣، ص ٢٨٨ - ٢٨٩).

ومهما يكن من أمر فإن قراءة الأستاذ العمري للتراث البلاغي العربي "تشكل لبنة ثالثة تضاف إلى لبنة أولى وضعها العلامة شوقي ضيف، ولبنة ثانية أضافها الأستاذ حمادي صمود ولكل من هذه اللبنات موقعها في البناء، لكل من الكتب الثلاثة استراتيجية معلنة وفعالة لا يغني عنها الكتاب الآخر" (العمري، أسئلة البلاغة في النظرية والتاريخ والقراءة، ٢٠١٣، ص ٢٥٥).

وتمثل المجال الثاني مجموعة من الدراسات التطبيقية، بحيث اتجهت عناية مجموعة من المؤلفين إلى تحليل مختلف أنواع الخطابات على ضوء المبادئ التي تقدمها البلاغة الجديدة، إيمانا منهم بأن البلاغة "تستمد قيمتها من قدرتها على توجيه الاهتمام إلى كافة الخطابات التي تغزو حياتنا؛ فلا يعقل أن يعكف الدارسون على الأعمال الأدبية غير عابئين بما يحيط بحياتهم من خطابات دينية وسياسية وإعلامية لا ينظرون فيها ولا يسائلونها ولا ينقدونها" (مشبال، حوار مع الأستاذ محمد مشبال، ٢٠١٤، ص ١٢٩).

ويبدو أن هذه الدراسات تأخذ، بصفة عامة، منحيين واضحين؛ أولهما يؤسس لبلاغة عربية جديدة منظورا إليها في بعدها التداولي الحجاجي، ولعل أهم الأعمال التي تمثل هذا المنحى دراسات الدكتور محمد العمري منها: كتاب "في بلاغة الخطاب الإقناعي،

ISSN: 2706-6495

مدخل نظري وتطبيقي لدراسة الخطابة العربية (الخطابة في القرن الأول نموذجا)" الذي يعد من الدراسات المؤسسة لبلاغة الخطاب الحجاجي من جهة، وللمشروع البلاغي للباحث من جهة ثانية؛ إذ هو أول كتاب ينشره العمري بعد التحاقه للتدريس بالجامعة، كما أنه أول كتاب في المكتبة العربية يخصص لموضوع الإقناع في البلاغة العربية، وهو سابق على المصنف الجماعي "أهم نظريات الحجاج في التقاليد الغربية من أرسطو إلى اليوم" الذي أشرف على صدوره الباحث التونسي حمادي صمود سنة ١٩٩٩، ويمكن الإشارة أيضا إلى كتاب "دائرة الحوار ومزالق العنف" الذي قدم فيه مدخلا نظريا وتطبيقيا للخطابة السياسية الحديثة بالمغرب، وكتاب "منطق رجال المخزن وأوهام الأصوليين، عوائق الحداثة في المغرب"، هذا إضافة إلى عدد من المقالات والدراسات التي تنشر بين الفينة والأخرى على صفحات المجلات.

ومن الدراسات التي أغنت المكتبة العربية في حقل الحجاج نذكر على سبيل المثال لا الحصر: كتاب "الحجاج في القرآن" لعبد الله صولة، وكتابي "اللغة والحجاج" و"الخطاب والحجاج" لأبي بكر العزاوي، وكتاب "الحجاج مفهومه ومجالاته، دراسات نظرية وتطبيقية في البلاغة الجديدة"، وهو كتاب من إعداد وتقديم حافظ إسماعيل علوي، ويتكون من خمسة أجزاء ويجمع أكثر من ستين دراسة لثمانية وأربعين باحثا من تسعة بلدان عربية.

وتمثل المنحى الثاني مجموعة من الدراسات التي اهتمت بتحليل بعض الأجناس الأدبية من النثر العربي القديم والحديث، نشير بهذا الخصوص إلى كتاب "البلاغة الجديدة بين التخييل والتداول" لمحمد العمري الذي خصص الفصل الثاني من الكتاب لدراسة ما أسماه بالبلاغات الخاصة ممثلة في السخرية الأدبية مع تطبيق على السخرية الجاحظية، إضافة إلى بلاغة السيرة الذاتية من خلال بعض النماذج المغربية، حيث درس العمري مجموعة من القضايا المتعلقة بالسيرة الذاتية لعل أهمها قضية تداخل الواقعي والمتخيل في النص السير ذاتي، لينتقل بذلك إلى دراسة مظاهر وتجليات هذا التداخل في بعض الأعمال المغربية، المتمثلة في سيرتي الكاتب المغربي: "السوق الداخلي"و"زمن الأخطاء".

وفي هذا الإطار يندرج كتاب "الواقعي والمتخيل في بلاغة السيرة الذاتية" الصادر عن مجلة البلاغة وتحليل الخطاب، وهو إنتاج جماعي اهتم بدراسة سيرتي "أشواق درعية" و"زمن الطلبة والعسكر" للأستاذ محمد العمري، ومن الأعمال الجماعية التي يمكن الإشارة إليها بهذا الخصوص كتاب "بلاغة النص التراثي، مقاربة بلاغية حجاجية" إشراف الدكتور محمد مشبال، وهو كتاب يتضمن مقاربات بلاغية حجاجية لأنواع مختلفة من الخطابات؛ الخطبة السياسية والقصيدة الشعرية والرسالة والوصية والصورة الشخصية والخبر والنص النقدي، ويعود هذا الاهتمام المشترك بموضوع البلاغة إلى كون الباحثين يشتغلون في إطار إبدال أو مناخ فكري واحد، هذا زيادة على أنه "من الصعب، وربما من المستحيل تصور عالم يشتغل خارج كل إبدال، وباستقلال عن كل جماعة، وحتى عندما يعيش عالم ما منعزلا، فإنه في نشاطه العقلي يحاور علماء آخرين ويتواصل معهم، ويستحضر آراءهم ويناقشها في ذهنه ويسأل ويجيب، ويعترض ويؤيد، إذ المعرفة خصوصا المعرفة العلمية نسيج جماعي وليست إنشاءات لأفراد منزوين على أنفسهم" (البعزاتي، ٢٠٠٧، ص ١١٥).

ويلاحظ أن أغلب الدراسات التطبيقية في مجال البلاغة الجديدة اتجهت إلى مقاربة الخطاب الإقناعي ممثلا في الخطاب السياسي، حيث سعى الباحثون إلى استكناه مضمراته والكشف عن الآليات المعتمدة في بنائه،

ISSN: 2706-6495

ويرجع هذا الاهتمام المتزايد بالخطاب السياسي في الدراسات البلاغية الحديثة إلى سببين اثنين: أولهما يتمثل في الظرف التاريخي الذي يتميز بتصارع حدة التوتر بين الخطابات المختلفة، وهكذا صارت دراسة هذا النوع من الخطاب من الأولويات في العصر الحديث، سيما وأنه ينفتح على مجموعة من المجالات كالمجال النفسي والمجال الاجتماعي، ويرجع السبب الثاني إلى طبيعة هذا الخطاب؛ فمن المعلوم أن هذا النوع يمثل "مركز بلاغة الحجاج، وذلك باعتباره الفضاء اللغوي الذي تنشر فيه وتبسط كل قضايا تدبير الحياة المدنية، أي كل ما يتعلق بتنظيم حياة إنسانية جماعية" (العمري، أسئلة البلاغة في النظرية والتاريخ والقراءة، ٢٠١٣، ص ٧٦)، ومن ثم فهو يشكل مجالا خصبا لرصد مظاهر وتجليات الوسائل الإقناعية والمغالطات وغيرها من العناصر التي يقوم عليها الخطاب الإقناعي.

وتجدر الإشارة هنا إلى أن الدراسات البلاغية الحديثة ذات النزوع التطبيقي لم تقف عند حدود الخطابات العليا تخييلية كانت أم تصديقية، وإنما أخذت تنفتح على اللغة العادية بدراسة نصوص الحياة اليومية، شريطة أن تكون هذه النصوص محققة لوظيفة من الوظائف البلاغية (الوظيفة الجمالية أو الوظيفة الإقناعية التأثيرية أو هما معا) ليصبح بذلك علم البلاغة "هو العلم الذي يدرس كيف تُنجز النصوص، والخطابات العامة والخاصة، وظائف الإقناع والتأثير، والإمتاع وغيرها" (اللطيف، ٢٠١٩، ص ١٣).

وهكذا اتسعت دائرة النصوص التي يدرسها باحثو البلاغة، إذ لم يعد الاهتمام منصبا على النصوص الشعرية (التخييلية) والحجاجية (التصديقية) فحسب وإنما اتجه إلى أنواع أخرى من الخطابات غير الأدبية وغير المقدسة (النص القرآني)، وقد ساهم هذا الانفتاح في تطوير إجراءات التحليل البلاغي وتوسيع مبادئه وتجديد جهازه المفاهيمي؛ إذ كلما استوعب التحليل البلاغي خطابات متعددة تعددت الآليات المنهجية واختلفت المقاربات، بحيث لا يمكن الحديث عن مبادئ ثابتة ومقاربة واحدة يمكن تحليل مختلف الخطابات على ضوئها لأن "هناك مسافة بين البلاغة بوصفها خطابا نظريا متعاليا، وبين اعتبارها مقاربة علمية لنصوص حية، فالبلاغي هو الذي يتغلغل في النص سعيا إلى وصفه وتأويله ولا يمكن أن يظل حبيس منطلقاته النظرية لأن عالم النص يقود خطواته ويجبره على الدخول إلى مناطق لم يخطط لها من قبل" (مشبال، حوار مع الأستاذ محمد مشبال، ٢٠١٤، ص ١٢٥).

ويمثل هذا الاتجاه البلاغي في العالم العربي الدكتور عماد عبد اللطيف، الذي استطاع من خلال العديد من المقالات أن يفتح التحليل البلاغي على خطابات ظلت منذ نشأة البلاغة مستبعدة بل ومستهجنة لأنها صادرة عن العامة أو السفلة حسب تعبير الجاحظ، مؤسسا بذلك توجها معاصرا في البلاغة العربية يدعى "بلاغة الجمهور"، ويقصد به العلم الذي يهتم بدراسة "استجابات المخاطبين اللغوية وغير اللغوية التي ينتجونها في سياق تلقي الخطابات العامة والخاصة. وهي استجابات تنجز بدورها وظائف نفعية (إقناعية أو تأثيرية)، وجمالية (إمتاعية)" (اللطيف، ٢٠١٩، ص ١٣).

وبناء على هذا اهتم الدكتور عماد عبد اللطيف بدراسة استجابات الجمهور في مجالات مختلفة منها ما هو مرتبط بالمجال السياسي ومنها ما هو مرتبط بالمجال الصحفي ومنها ما هو مرتبط بالمجال الرياضي... مسلطا بذلك الضوء على "مادة هائلة لم تدرك من قبل على أنها مادة بلاغية" (اللطيف، ٢٠١٩، ص ١٣) سيما وأنها تشكل مجالا خصبا للتحليل البلاغي.

ISSN: 2706-6495

نتائج البحث

وانطلاقا مما سبق يمكن الخروج بالنتائج التالية:

- إن القول بالبلاغة الجديدة يقتضي وجود بلاغة قديمة ويقصد بها ذلك المأثور الخطابي الأرسطي الذي ظل حاضرا بشكل مركزي في المنجز البلاغي الغربي المعاصر، ولهذا فإن فهم توجهات البلاغة الغربية الحديثة يقتضي العودة إلى البلاغة القديمة؛
- عرفت البلاغة القديمة مجموعة من المراحل بدءا بمرحلة النشأة بفعل المنازعات القضائية حول الأرض بصقلية ومرورا بمرحلة تعليم الخطابة على يد السفسطائيين ومعلمي الخطابة في أثينا ووصولا إلى مرحلة التنظير على يد أرسطو حيث استوت الخطابة في نسق نظري؛
- بعد الركود والجمود الذي عرفته البلاغة الغربية في القرن التاسع عشر بفعل الفلسفة الديكارتية وغلبة التوجه الرومانسي، ارتفعت مجموعة من الأصوات الداعية إلى إعادة النظر في البلاغة الأرسطية في ضوء النظريات اللسانية الحديثة، وهكذا انخرط مجموعة من الباحثين في عملية رد الاعتبار للمأثور الخطابي الأرسطي، وقد أفرز ذلك ثلاثة توجهات كبرى أولها حجاجي منطقي أو فلسفي يجر البلاغة نحو المنطق ويمثله كتاب "مصنف في الحجاج، البلاغة الجديدة" لبيرلمان وتيتيكا، والثاني أسلوبي أدبي يجرها إلى الشعر عبر الأدب، وتمثله مجموعة من الأعمال منها كتاب مشترك بين أفراد جماعة "مي" بعنوان "البلاغة العامة"، والثالث خطابي سيميائي يروم تغطية المجال التواصلي ويمثله كتاب "البلاغة والأسلوبية" لهنريش بليث؛
- أصبحت البلاغة الجديدة مبحثا علميا عصريا ينفتح على مختلف مجالات الخطاب الاحتمالي الذي ينشد أثرا ما، ومن ثم فهي تهتم بمختلف الأجناس الأدبية. فأصبحنا بذلك نتحدث عن بلاغات متعددة: بلاغة الخطاب الشعري، وبلاغة الخطاب الديني، وبلاغة الخطاب السياسي، بلاغة الخطاب الروائي، بلاغة الخطاب الإشهاري، بلاغة الخطاب الفلسفي...
- حاول مجموعة من الباحثين العرب السير على منوال البلاغيين الغربيين؛ وهكذا اتجهت عنايتهم إلى جانبين أساسيين أولهما يهتم بإعادة قراءة التراث البلاغي وتمثله مجموعة من المشاريع (مشروع محمد العمري، ومشروع حمادي صمود)، وثانيهما يحاول دراسة المتون العربية في ضوء ما انتهت إليه الجهود البلاغية الغربية وتمثله مجموعة من الدراسات.
- لم تقف دراسة البلاغيين العرب عند حدود الخطابات العليا تخييلية كانت أم تصديقية، وإنما تجاوزت ذلك إلى دراسة المحاورات اليومية وانفتحت على نصوص اللغة العامية كأناشيد جمهور كرة القدم، وشعر الملحون وغيرها من النصوص غير الفصيحة لبيان نجاعة هذه النظرية البلاغية في التعامل مع مختلف أنواع الخطاب.

خلاصة

وانطلاقا مما سبق يمكن القول إن نهضة البلاغة العربية لا تقل شأنا عن نهضة البلاغة الغربية، هذا إن لم نقل إنها شهدت المسار نفسه الذي عرفته هذه الأخيرة؛ فبعد سنوات من الركود والانحطاط المتمثل في هيمنة التصور الضيق للبلاغة (البلاغة المختزلة)، الذي يجعل منها دراسة لطرق التعبير وأساليب القول والصور البيانية والمحسنات البديعية، استطاع مجموعة من البلاغيين العرب بعث البلاغة العربية بإعادة قراءتها من منظور جديد يروم رد الاعتبار لبلاغة الانتشار[١]، والثورة على البلاغة المختزلة التي تتخذ من تصور السكاكي ومن جاء بعده من الشراح والملخصين أساسا لها.

ولم تقف الدراسات البلاغية العربية الحديثة عند حدود إعادة قراءة المأثور البلاغي وإنما تجاوزته إلى بلورة بلاغة عامة تروم مقاربة مختلف أنواع الخطابات القائمة على الاحتمال والتأثير، وهكذا تفرعت عن البلاغة العامة مجموعة من البلاغات القطاعية أو الخاصة كبلاغة الخطاب الشعري، بلاغة الخطاب السياسي، بلاغة الخطاب الديني، بلاغة الخطاب الإشهاري، بلاغة السيرة الذاتية، بلاغة الجمهور...

إن هذه الجهود البلاغية النظرية والتطبيقية تنطوي على عمق في النظر والتحليل، وعلى وعي تام بأهمية هذا العلم ورحابته، كما تكشف عن خصوصية البلاغة العربية التي تنفتح على مختلف المباحث والعلوم التي ساهم بها المنشغلون بالخطاب من جوانب مختلفة منذ نشأة البلاغة، وفي ذلك دحض غير مباشر للمركزية الغربية التي تعتبر العرب مجرد ناقلين للتراث اليوناني قديما ومستهلكين للمعرفة الغربية حديثا.

لائحة المصادر والمراجع

- الحسين بنو هاشم، بلاغة الحجاج الأصول اليونانية، دار الكتاب الجديد، بيروت، الطبعة الأولى، ٢٠١٤؛
- الحسين بنو هاشم، نظرية الحجاج عند شاييم بيرلمان، دار الكتاب الجديد، بيروت، الطبعة الأولى، ٢٠١٤؛
- البلاغة والخطاب، إعداد وتنسيق محمد مشبال، دار الأمان، الرباط، الطبعة الأولى، ٢٠١٤؛
- أهم نظريات الحجاج في التقاليد الغربية من أرسطو إلى اليوم، إعداد فريق البحث في البلاغة والحجاج، إشراف حمادي صمود، منشوراتكلية الآداب منوبة، مجلد: xxxix

[١]. يوظف الأستاذ محمد العمري مصطلح "بلاغة الانتشار" في مقابل "بلاغة الانحسار" أي البلاغة الضيقة المختزلة في العلوم الثلاثة المعروفة: علم البيان، علم المعاني، علم البديع. ويعرف العمري بلاغة الانتشار بقوله: "العلم الذي يستوعب مجموع الاجتهادات التي ساهم بها المنشغلون بالخطاب الاحتمالي المؤثر من زوايا عديدة: البديعيون ونقاد الشعر، والبيانيون وعلماء الخطابة، ومنظرو الإنشاء والكتابة، وقراء نظريتي الشعر والخطابة عند اليونان، من بداية التفكير البلاغي إلى القرن الخامس الهجري، بل حتى السابع منه حيث كان حازم آخر المجتهدين". لمزيد من التفاصيل انظر كتاب "المحاضرة والمناظرة في تأسيس البلاغة العامة"، محمد العمري، أفريقيا الشرق، الدار البيضاء، الطبعة الأولى، ٢٠١٧، ص ١٣، ٢٠.

ISSN: 2706-6495

- بناصر البعزاتي، خصوبة المفاهيم في بناء المعرفة، دار الأمان، الرباط، الطبعة الأولى، ٢٠٠٧؛
- هنريش بليث، البلاغة والأسلوبية: نحو نموذج سيميائي لتحليل النص، ترجمة محمد العمري، أفريقيا الشرق، الدار البيضاء، الطبعة الأولى، ١٩٩٩؛
- حمادي صمود، التفكير البلاغي عند العرب أسسه وتطوره إلى القرن السادس، منشورات الجامعة التونسية، الطبعة الأولى، ١٩٨١؛
- محمد العمري، أسئلة البلاغة في النظرية والتاريخ والقراءة، أفريقيا الشرق، الدار البيضاء، الطبعة الأولى، ٢٠١٣؛
- محمد العمري، البلاغة العربية: أصولها وامتداداتها، أفريقيا الشرق، الدار البيضاء، الطبعة الثانية، ٢٠١٠؛
- محمد العمري، المحاضرة والمناظرة في تأسيس البلاغة العامة، أفريقيا الشرق، الدار البيضاء، الطبعة الأولى، ٢٠١٧
- مجلة البلاغة وتحليل الخطاب، الدار البيضاء، العدد ٥، ٢٠١٤؛
- مجلة العمدة في اللسانيات وتحليل الخطاب، جامعة محمد بوضياف، المسيلة، العدد ٦، ٢٠١٩
- عبد الله صولة، "نظرية في الحجاج دراسات وتطبيقات"، مسكيلياني للنشر، تونس، الطبعة الأولى، ٢٠١١؛
- عبد الله صولة، الحجاج في القرآن من خلال أهم خصائصه الأسلوبية، دار الفاربي، بيروت، الطبعة الأولى، ٢٠٠١؛
- عماد عبد اللطيف، بلاغة جمهور كرة القدم، تأسيس نظري ومثال تطبيقي، مقال نشر بمجلة العمدة في اللسانيات وتحليل الخطاب، جامعة محمد بوضياف، المسيلة، العدد ٦، ٢٠١٩؛
- صادق الحسيني، الشيرازي، الموجز في المنطق، مؤسسة الوفاء، بيروت، الطيعة الثالثة، ١٩٨١،
- رولان بارت، البلاغة القديمة، ترجمة وتقديم: عبد الكبير الشرقاوي، نشر الفنك؛
- شاييم بيرلمان، محاضرات في نظرية الحجاج، ضمن فلسفة البلاغة الجديدة، ترجمة أنوار طاهر، مراجعة وتقديم أبو بكر العزاوي، عالم الكتب الحديث، الأردن، الطبعة الأولى، ٢٠٢٠؛
- شاييم بيرلمان، نحو نظرية فلسفية في الحجاج، ضمن فلسفة الحجاج البلاغي، نصوص مترجمة لشاييم بيرلمان، ترجمة أنوار طاهر، مراجعة وتقديم أبو بكر العزاوي، عالم الكتب الحديث، الأردن، الطبعة الأولى، ٢٠١٩.

جميع الحقوق محفوظة © 2020، الباحث منير بورد، المجلة الأكاديمية للأبحاث والنشر العلمي.

(CC BY NC)